



الملتقى العلمي الأول

واقع القرآن الكريم وعلومه في الأحساء

خلال الفترة (١٣٠٠- ١٤٣٧هـ)

في رحاب جامعة الملك فيصل بالأحساء

الأربعاء-الخميس

(١٨-١٩/ ١/ ١٤٣٨هـ)

(١٩-٢٠/ ١٠/ ٢٠١٦م)

المُنْتج الشعبي في إقراء القرآن الكريم
حفلة (التحميدة) في ختم القرآن الكريم نموذجاً

د. سمير بن عبد الرحمن الضامر
باحث في الدراسات الثقافية والفلكلور الشعبي

ملخص:

هذه ورقة تتناول (التحميدة) في ختم القرآن الكريم في الأحساء أيام التعليم التقليدي، أو ما كان يسمى بـ "الكُتَّاب" تناولت الورقة (التحميدة) من خلال موقعها من المُنْتج الشعبي العامي، ودورها في إثراء إقراء القرآن الكريم، وخصوصاً استحضار معتقدات التوحيد والأذكار والصلوات على النبي محمد ﷺ، وحللت الورقة نظامها الثقافي ودلالاتها الطِقسية من خلال مباحث الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع، والهدف من ذلك: هو تقديم قراءة جديدة لهذا التراث، وتفكيك البنيات الثقافية، وإرجاعها إلى أصولها الأولى، وطريقة تشكلها في الوجدان الشعبي العام، ومحاولة تفسير ارتباط تلك الحفلات بأصول فكرة "المقدس" في الذهنية الاجتماعية.

وتوصل البحث إلى:

- أنَّ التحميدة ثقافة اجتماعية مصدرها (العاطفة) نحو القرآن الكريم.
- أنَّ التحميدة تحمل نظاماً سيميائيّاً متكاملاً [لغوياً- وغيرَ لغوي]
- أنَّ التحميدة تعود في أصولها إلى ما يُعرف بـ "طقوس العبور" وتتشابه مع طقوس التعميد البدائية في الثقافات القديمة.
- أنَّ اللاوعي له دوره في تشكيل (التحميدة) بهذا النظام الثقافي، فقد غاب الوعي بكونها طِقساً، وبقيت في الذهنية أنها مجرد حفلة تكريم وفرح.

مقدمة

هذه ورقة تتناول (التحميدة) في ختم القرآن الكريم في الأحساء أيام التعليم التقليدي، أو ما كان يسمى بـ "الكُتَّاب" تناولت الورقة (التحميدة) من خلال موقعها من المُنْتج الشعبي العامي، ودورها في إثراء إقراء القرآن الكريم، وخصوصاً استحضار معتقدات التوحيد والأذكار والصلوات على النبي محمد ﷺ، وحللت الورقة نظامها الثقافي ودلالاتها الطِقسية من خلال مباحث الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع.

والهدف من ذلك: هو تقديم قراءة جديدة لهذا التراث، وتفكيك البنيات الثقافية، وإرجاعها إلى أصولها الأولى، وطريقة تشكلها في الوجدان الشعبي العام، ومحاولة تفسير ارتباط تلك الحفلات بأصول فكرة "المقدس" في الذهنية الاجتماعية.

الكتابات السابقة في موضوع (التحميدة):

كتب العديد من الكُتَّاب والباحثين في تاريخ الأحساء وتراثها عن نظام التعليم التقليدي، وذلك قبل عهد الملك عبد العزيز يرحمه الله، وفصَّلوا في وصف نظام (المطوّع) أو (الكُتَّاب) وطريقة التعليم فيه، وتقسيم الفصول والطلاب وبعض المقررات التي كانت تُدرَّس كالحساب والخط مع تلاوة وحفظ القرآن الكريم، وغالب تلك الكتابات هي كتابات وصفيّة مأخوذة من مصادر شفاهية من أناس كانوا يدرسون في (المطوّع) وسردوا الطريقة كاملةً في نظام التعليم، وخصوصاً في حفلة (التحميدة).

ولم يشر أي كاتب من الكُتَّاب إلى تحليل نص (التحميدة) أو تفسير تلك

الحفلة من وجهات النظر العلمية الحديثة، وذلك لشيوع العلم حولها بأنها مجرد حفلة ومناسبة سعيدة تقام على سبيل المكافأة لمن يتقن ختم القرآن الكريم.

والكتابات التي وصفت التعليم التقليدي في (المطوع) هي:

- **لمحات من الحياة التعليمية في الأحساء** "من القرن الحادي عشر إلى القرن الخامس عشر الهجري" تأليف: عبد اللطيف بن عثمان الملأ. الناشر: الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون- فرع الأحساء. بدون تاريخ للنشر.
- **الحياة العلمية والثقافية والفكرية في المنطقة الشرقية (١٩٣٠-١٩٦٠م)** تأليف: د. عبد الله بن ناصر السبيعي ط٢/ ١٩٨٩م.
- **منطقة الأحساء عبر أطوار التاريخ** تأليف: خالد بن جابر الغريب ط٢/ ١٤٠٨هـ المكتبة الوطنية –الخبر.
- **كانت أشبه بالجامعة** "قصة التعليم في مقاطعة الأحساء في عهد الملك عبد العزيز؛ دراسة في علم التاريخ الاجتماعي" تأليف: الدكتور عبد اللطيف بن محمد آل ملحم ١٩٩٩م.
- **مقالات في تراث الأحساء** تأليف: المهندس عبد الله بن عبد المحسن الشايب ط١/ ٢٠٠٠م.
- التعليم التقليدي **المطوّع في الأحساء** تأليف محمد بن علي الحرز.

مصادر نص (التحميدة):

لدينا عدد من المخطوطات لنص التحميدة (وهي من مخطوطات الأستاذ الباحث: عبد العزيز العصفور)، وأيضاً من الكتب المطبوعة التي سبق ذكرها، وبعض تلك الكتب تذكر أنَّ التحميدة هي مجموعة نصوص، وهي على ثلاثة أنواع أو مقطوعات، ولكن بالعودة للمخطوطات فإنَّ التحميدة هي نص واحد فقط، متكامل الفكرة في موضوعه كما سنتحدث عنه في بنائها، والمخطوطات التي رجعنا إليها هي:

النسخة الأولى:

وعددها أربع ورقات نسخة أحمد بن الشيخ محمد الجعفري سنة النسخ شعبان ١٢٩٦هـ وهي مكتوبة بخط واضح، وليس فيها تفريق بين الأشطر الشعرية، وفيها تباين في حجم الكلمات، والأسطر تميل عن السطر المستقيم، وفيها بيت واحد مشكَّل وبقية الأبيات بدون تشكيل.

وجاء في ختامها: "اللهم صل على البشير النذير، السراج المنير، الطيب الطاهر، السيد الفاخر، نبي حج واعتمر، وجاهد وصبر، وبدين الله أمر، ونهى عن الفحشاء والمنكر، الدر والجوهر، والعلم الأخضر، والمداد والعنبر، نبي اسمه في السماوات أحمد وفي الأرض محمد، وفي الجنة أبو القاسم، اللهم ارفع له الدرجات، بجاه منى وعرفات، وزمزم ومزدلفات، ويس والصافات، والأحقاف والحجرات، وق والذاريات، وتبارك الذي بيده الملك والمرسلات، وعمَّ والنازعات، وبِعَدِّ ما في القرآن من الآيات، اللهم اغفر لكاتبه ولقاريه ولوالدينا والمسلمين والمسلمات، الأحياء منهم

والأموات، إنك قريب مجيب الدعوات، برحمتك يا أرحم الراحمين. تمت التحميدة المباركة بحمد الله تعالى يوم تاسع وعشرين من شعبان سنة ١٢٩٦/ ملكه الأقل.... أحمد بن الشيخ محمد الجعفري كاتبه لنفسه أحمد سلمه الله آمين".

النسخة الثانية:

وعددها ست ورقات، بدون تاريخ نسخ وبدون اسم الناسخ أو المتملك لهأ. وهي بخط جميل وواضح، ومكتوبة بطريقة كتابة المصاحف القديمة، وكتب في الورقة الأولى منها: "هذه تحميدة القرآن العظيم غفر الله لمؤلفها ومن قرأها ومن كتبها ومن حضرها ومن سمعها آمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين آمين.

إن تجد عيباً فسد الخللا   جل من لا عيب فيه وعلا"

النسخة الثالثة:

وعددها ثلاث ورقات، بقلم أحمد ابن المرحوم حمد بن العربي ذو القعدة ١٣٤٧هـ والخط فيها واضح مقروء، وبعض الأبيات عليها طمس وآثار رطوبة، والأبيات مشكولة بالكامل، وجاء في نهاية النسخة: "تمت بقلم أفقر العباد وأحقرهم أحمد ابن المرحوم أحمد بن العربي رحمه الله وغفر ذنوبه. آمين والمسلمين أجمعين. ذو القعدة سنة ١٣٤٧".

النسخة الرابعة:

وعددها ثماني ورقات، وكتبت بخط واضح كبير، وليس عليها اسم الناسخ أو المتملك، وكل الورقات مصابة بآثار رطوبة وطمس لسوء الحفظ

للنسخة.

وقد تم تقسيم هذه الورقة إلى تمهيد ومبحثين:

تمهيد: المقدس وإنتاج المعرفة.

المبحث الأول: (التحميدة) بوصفها نظاماً ثقافياً اجتماعياً.

المبحث الثاني: (التحميدة) أصولها اللغوية والأنثروبولوجية.

تمهيد: المقدس وإنتاج المعرفة (ثقافة- نصوص- طقوس)

ما "المقدس"؟

المقدس قد يكون نصاً إلهياً كنصوص الكتب المقدسة.

المقدس قد يكون حجراً أو شجرة أو نظاماً اجتماعياً عرفياً لم يُخترق ولا يجرؤ أحدٌ على اختراقه أو تغييره!

المقدس قد يكون طِقساً أو شعيرة أو حركات توارثها أقوام من آلاف السنين وورثوها لكل الأجيال ولم يقف أحد ويسأل عن ماهية هذا الطِّقس! أو تلك الحركة؟؟

المقدس يختلف في تعريفه: فمنهم من يرى قداسة هذا الشيء؛ لأنَّ الله أورد فيه نصًّا قطعيًّا، أو ورد فيه حديث نبوي، أو اجتهاد خاص من بعض العلماء أو المجتهدين أو العارفين، وهكذا بحسب اختلافات التلقي الثقافي للأديان والمذاهب حول العالم.

ولمعرفة تعريف للمقدس فينظر له أيضاً من جانب أصوله المعرفية، وطريقة تلقيه، وبداياته التي جاء منها، والناس الذين تحمَّلوه ونقلوه للأجيال.

إذاً فمبحث تعريف المقدس (معرفيا) واسع جدا، ولا يمكن أن نحده بحدود شرعية دينية، أو تصورات أنثروبولوجية إنسانية، وهذه النتيجة في عدم استطاعتنا وضع حدود وتعريف للمقدس هي التي تعين على تفسير العديد من الظواهر الثقافية والاجتماعية المرتبطة بالأديان والمذاهب.

المقـدس بحـسب تفريعاتـه المختلفـة سـاهم في إلهـام الإنـسان بنـاء الأسواق وجعلها قريبة من المعابد أو الكنائس أو المساجد، وذلك من أجـل الاستفادة من توافد الناس على السوق بعد انتهائهم من أداء الشعيرة أو الصلاة، ومن هنا ازدهرت التجارة وحركة البيع والشراء بالقرب من الأماكن المقدسة وهذا ما يختص بالشأن المادي ومنافع الحياة، وساهم في إلهام الإنسان لتأليف النصوص والشروحات والتفاسير والمنظومات العلمية، وتأسست المدارس والفرق والاتجاهات السياسية والمذهبية، وبرز علماء مختلفون في المشارب والتصورات كل بحسب تلقيه لهذا المقدس! هذا بالنسبة للشأن الفكري.

إذا فالمنفعة من المقدس تكون مادية نفعية ودينية وفكرية ثقافية تؤسس لفكرة السلطة والاستحواذ المرتبطة باستلهام أي فكرة دينية أو مقدسة.

ومن هنا ننطلق في السؤال حول موضوع هذه الورقة: كيف استطاع القرآن الكريم -بوصفه نصاً مقدساً لدى المسلمين- أن يلهم (بطريق مباشر أو غير مباشر، من خلال الوعي أو اللاوعي) الذين يحفظون القرآن الكريم في ابتكار "التحميدة" التي تقال بعد ختم الولد لحفظه للقرآن الكريم؟

المقدس في كل الأديان والثقافات له دوره في بناء الأفكار والأنظمة والتصورات، قد يكون المقدس هو الدافع والصانعُ الصناعة الحقيقية المادية للحياة إذا ارتبط بنصوص قطعية أو أوامر لأنبياء أو كهنة، وقد يكون ملهماً

لكثير من الأشياء والتصورات التي ابتكرها الإنسان المتدين، بناءً على التلقي والفهم، ومستوى الحس العاطفي تجاه المقدس، (إنَّ دراسة المقدس تدخل في علاقة دائرية مع تعريف الدين، فالأشياء المقدسة غالباً ما ينتجها المجتمع، بينما الأشياء الدنيوية يصنعها الفرد، إنَّ هذا يعني أنَّ الدين يصنع المقدس، بينما لا يمكن للفرد واحداً أن يصنع الدين، أو بعبارة أصح إنَّ المقدس يمكن أن يدخل في الدين، بينما لا يمكن أن تعتبر كل مقدس ديناً)[1].

ومن هذا المنطلق فسنتناول فكرة (التحميدة) بوصفها نظاماً ثقافياً اجتماعياً انطلق من قدسية (القرآن الكريم) ومكانته العظيمة، وتشكلت من خلال هذه الطريقة الأدائية الطقسية، وسنبحث في أصولها، وماذا يمكن أن تعطينا (التحميدة) من أنساق مضمرة، ساهم تعليم القرآن الكريم – بوصفه مصدراً للإلهام والتحفيز – على صناعة هذا النوع من المظاهر الشعبية التي انتشرت في المجتمعات الإسلامية.

(١) المقدس بين العادة والمعتقد، عزيزي سعيدة، مجلة الثقافة الشعبية – البحرين (ص: ٣٨).

المبحث الأول
(التحميدة) بوصفها نظاماً ثقافياً اجتماعياً

أولاً: (الكُتَّاب)

في البدء كان المكان الخاص لتعليم القرآن الكريم، وهو ما كان يعرف باسم (الكُتّاب)، وهو مكان لتعليم الأطفال الصغار القرآن الكريم، ومبادئ القراءة والكتابة، و(الكُتّاب) قديم في الحضارات البشرية، فقد كان الفراعنة يلحقون بمعابدهم مدارس خاصة للتعليم كانت تعرف باسم: مدرسة المعبد، واستمر هذا النوع من التعليم بوصفه نظاماً حضارياً تستفيد منه الأمم في تعليم الأجيال الأبجديات والنصوص والتعاليم المقدسة وقوانين وأنظمة القبائل البدائية.

وقد ذكر ابن خلدون هذا النظام من التعليم في مقدمته، وجعل له فصلاً بعنوان: (الفصل التاسع والثلاثون؛ في تعليم الولدان واختلاف مذاهب الأمصار الإسلامية في طرقه) وحث على تعليم الصبيان القرآن في سن مبكرة وذلك لرسوخه في قلوبهم، وذكر اختلاف الأمصار في طرائق التعليم، فمنهم من يعلم الصبيان القرآن الكريم فقط، ومنهم من يربطه بتعليم الخط وعلوم العربية المختلفة(١).

و(الكتاتيب كانت معروفة بكثرة في بلاد الشام ومصر وفارس والعراق قبل الإسلام، فلا غرابة إذ نقل القرشيون ذلك عنهم في رحلاتهم

(١) ينظر: مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون، (ص: ٧٤٠).

التجارية، وأنَّ الجاليات النصرانية واليهودية في الجزيرة كانت تعلم أبناءها في الكتاتيب، ثم أصبح الكتاب بعد ظهور الإسلام المكان الرئيس للتعليم، دعت إلى ظهوره حاجات التوسع في نشر الدين، وانتقال العرب من حال البداوة إلى حال الحضارة، وعرف المسلمون نوعين من الكتاتيب: كُتَّاب يقوم بتعليم القراءة والكتابة يقوم في منازل المعلمين غالباً، وكُتَّاب تعليم القرآن الكريم ومبادئ الدين الإسلامي ومكانه في المسجد)(٢).

والكُتّاب (موضع تعليم الكتاب أي الكتابة، ويظهر أنَّ الكتاب والمكتب كان قد استعمل في العصر العباسي الأول لمكان تعليم الصبيان، والكتاب هو المدرسة الأولى التي يدخلها الطفل بعد سن السادسة من عمره)(٣).

وبحكم أنَّ الكتَّاب هو نظام تعليمي واجتماعي منتشر في الأحساء وعموم الخليج العربي فإنَّ (طريقة التعليم في الكتَّاب كانت مشابهة لمثيلاتها في إمارات الخليج العربي، وأنحاء الجزيرة الأخرى، بل مختلف أنحاء العالم الإسلامي، وكان السكان يرسلون أبناءهم إلى الكتاب عندما يقتربون من سن السابعة من أعمارهم، وكان يطلق على معلم الصبيان لقب "مطوع" أو "ملا" وهو لقب عثماني، وكان "المطوع" هو المعلم الوحيد في الكتَّاب، ويقوم بتدريس جميع المواد، وإن كان يستعين ببعض طلابه المبرزين بتدريس

(٢) التربية والتعليم في الإسلام، محمد أسعد طلس.

(٣) تاريخ التعليم في العراق، عبد الرزاق الهلالي.

المستجدين والضعفاء من طلابه، وكان المكان المعد للتدريس عبارة عن غرفة من غرف منزل "المطوع" يخصصها لهذا العمل، إلا أنَّ بعض المعلمين المشهورين والذين يكثر طلابهم كانوا يقومون أحياناً باستئجار مبنى يستخدم خصيصاً للتدريس، وكان الكُتَّاب عبارة عن غرفة تفرش أرضيتها بحصيرة يجلس عليها الصبيان ويواجهون "المطوع" الذي يتميز في الغالب بالهيبة والشدة، حيث كان يحمل باستمرار عصا لا يبخل في استخدامها عند الحاجة إليها، بل يستخدم أيضاً الفلقة "الجحيشة")[1].

ثانياً: (التحميدة):

و(التحميدة) هي النص الذي يردده الطلاب أثناء الاحتفال بختم القرآن الكريم عند المطوع، (وكانت مناسبة الاحتفال بختم القرآن الكريم وحفظه تعد مناسبة اجتماعية كبرى للابتهاج والفرح، فبعد أن يتأكد المطوع من إجادة تلميذه لقراءة القرآن وحفظه وترديده له سبع مرات متتالية (وهو ما يسمى بالتجريدة) تبدأ مراسم الاحتفالات بأن يلبس جميع الدارسين في الكتَّاب ملابس جديدة، ويتحلى القادرون منهم بالسيوف والخناجر، ويقومون بارتداء العباءات والعقل، أما من كان لا يستطيع منهم تملك الأشياء فلم يكن يجد غضاضة من استعارتها من أقاربه، ويبدأ الموكب في التحرك من الكتاب يتقدمه خاتم القرآن ومعلمه "المطوع" ويبدأ الجمع في

(١) الحياة العلمية والثقافية والفكرية في المنطقة الشرقية (١٩٣٠-١٩٦٠م)، عبد الله بن ناصر السبيعي (ص: ٣٠).

التطواف على بيوت تجار البلد وأعيانها، ويقومون بتأدية رقصة العرضة المشهورة، وترديد التحميدة عند كل بيت يمرون به، وكان البعض يبالغ في حمل مباخر العود ومراش العطور، أما التحميدة التي تردد في تلك المناسبة فقد سميت بذلك لأنها تبدأ بحمد الله)[٢].

ثالثاً: نص التحميدة:

التحميدة هي نص لغوي يقوله واحد من المجيدين في أداء الأناشيد والأهازيج الشعبية، ويقوم الطلاب بترديد كلمة (آمين) بعد نهاية كل شطر من أشطر التحميدة، بصوت مرتفع ويمرون على السكك والحواري والبيوت من أجل تعريف الناس بتخريج طالب من طلاب القرآن الكريم، والتحميدة هي أهزوجة قريبة من النظم الشعري في طريقة الوزن والقافية، وهي كالتالي:

الحمد للـــه الذي هدانـــا المجموعة (آمين)
للدين والإسلام واجتبانا المجموعة (آمين)
سبحانه من خالق سبحانا المجموعة (آمين)
بفضله علمنـــــــا القرآنا المجموعة (آمين)

والتحميدة مجهولة المؤلف! لا يعرف أحد من هو منشئها! وهي لا تخلو من الركاكة وضعف الصياغة في كثير من أبياتها، وأخطاؤها كثيرة في الوزن والقافية، وهي نظام شفاهي يقوم على التلقين والترديد، وهي

(٢) المصدر السابق. (ص: ٣٠).

الأنسب لنظام التحميدة بهذه الطريقة، وفي كل النسخ المخطوطة والمطبوعة التي تم الاطلاع عليها، فإنه لا يوجد ذكر للمؤلف، بل قد يذكر اسم الناسخ، أو مالك المخطوط، ولكن المؤلف لا وجود له إطلاقاً، وهذا أمر طبيعي والسبب أنَّ النظام الشفاهي التلقيني الذي أنتج هذه التحميدة لم يكن يريد منها إلا المنفعة من خلال تتمة أداء الحفلة؛ حفلة ختم القرآن، فهي قيلت من أجل إتمام المناسبة التي يقوم بإعدادها مجموعة الصبيان مع المطوع ومساعده، ولم تقل من أجل معرفة القائل؛ لأن الهدف العام منها هو هدف جماعي وليس فردياً.

رابعاً: بِنية نص (التحميدة):

المعجم اللغوي (الديني) هو الطاغي في بناء (التحميدة)، فلو فككنا التحميدة، ووزعناها كلمات منفردة، لاجتمع لنا معجم لغوي ديني، يستفيد منه أي خطيب فيأخذ منه ما يريد، ولعل هذا المعجم المفعم بالألفاظ الدينية يعطينا مؤشراً مُهماً إلى أنَّ أصل (التحميدة) ربما كانت خطبة يلقيها (المطوع/ الملا) ثم تطورت مع تطور خروجها بطريقة الطِّقس إلى أن تكون أهزوجة للترديد حتى تتناسب مع المقام، وربما كتبت خطبة في بدايتها، وأعطيت إلى من يعيد صياغتها على الطريقة الشعرية، ولعل اعتساف المنشئ في عمل الروي لحروف القوافي هو السبيل الذي سيجعل منها ذات أسلوب شعري منظوم، ولذلك فقد وقع في أخطاء نحوية وصرفية كثيرة.

وبنية (التحميدة) الشكلية/ الموضوعية جاءت على النحو التالي:

[الاستهلال- الموضوع- الختام].

[١] الاستهلال:

تبدأ التحميدة بلازمة تتكرر باستمرار وهي: (الحمد لله) أو (الحمد لله الذي)، وهي صيغة يقولها المسلمون بعد الانتهاء من أداء مهمة دينية أو دنيوية يستشعرون فيها الرضا وبث الشكر لله تعالى، وهي أيضاً محاولة للفت المخاطبين ومستمعي التحميدة إلى (الحمد لله) التي تبدأ بها سورة الفاتحة بوصفها أول سورة في ترتيب المصحف الشريف، وبما أنَّ سورة الفاتحة هي السورة الوحيدة التي يردد بعدها المسلمون كلمة (آمين) فإنَّ التحميدة تلتقط هذه اللفظة، وتكررها بعد كل شطر من أشطر التحميدة من خلال صوت الصبيان بصوتهم العالي (آمين) (آمين) حيث يشكل هذا الترديد إيقاعاً صوتياً منسجماً، ولكثرة كلمة (آمين) فإنَّ بعض المجتمعات الخليجية كانت تسمي التحميدة بـ (التأمينة)، أو (التومينة).

والاستهلال بـ (الحمد لله) في التحميدة هو إحالة على زمن متكامل أوشك على النهاية، وهو زمن الطِّقس الذي مر فيه الولد منذ أن دخل إلى الكتاب، واستمر في التعلم والممارسة سنة أو أكثر، إلى أن استطاع ختم القرآن الكريم، فالزمن الذي تحيل إليه (الحمد لله) هو زمن مضمر يستشعره الولد الذي ختم القرآن الكريم، ويستشعره المطوع الذي قضى وقته في التعليم والتلقين، ويستشعره الوالدان اللذان ذهبا بولدهما إلى الكتاب وظلا يراقبان مسيرته وتطوره في تعلم القرآن الكريم وحفظه، ويستشعره الناس الذين يشاهدون موكب التحميدة يطوف بالسكك

والحارات فيعرفون أنَّ (الحمد لله) هي نهاية ونتيجة لأفعال سابقة من التعلم والممارسة قد أنجزت على أتم حالة، وجاء وقت البوح والشكر لمن يسرها وهو الله تبارك وتعالى.

وهذا التركيب: (الحمد لله الذي هدانا) هو استدعاء لنفس التركيب القرآني الذي ما أن يذكر صيغة (الحمد لله الذي) إلا جاء بعدها بفعل ماضي: ﴿الحمد لله الذي خلق الظلمات والنور﴾، ﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب﴾، ﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي﴾.

فتركيب "الحمد لله الذي" يكون كالتالي: [مبتدأ+خبر+اسم موصول+فعل ماضي]، واستدعاء هذا التركيب اللساني/ القرآني هو دلالة على أن موكب (التحميدة) قد استوعب نص القرآن الكريم، وسار على محاكاته أو بعض منه في بعض التراكيب اللسانية والدلالية للإحالة كما ذكرنا إلى زمن النهاية الجميلة، أو الإحالة إلى المعنى العام الذي تريد (التحميدة) توصيله إلى المتلقين وهو: المعنى الديني، الظاهر في هذه الممارسة الطِّقسية، وهي تصرّح بعد ذلك بتفاصيل المعتقد السلفي الذي تتبناه، ولذلك فبنية التحميدة وإن كانت قائمة على البنية الشكلية لنظام الشعر في الشطرين والقافية، إلا أنها لا تقترب من المستوى الشعري/ البلاغي، ولا تتوسل إليه ألبتة؛ لأنها تستدعي الموضوع المباشر والممارسة والإقناع من خلال الصوت والحركة الطِّقسية في حفل التحميدة، وهذا النظام هو نظام (الفن الشعبي) الذي يصنع الجو العام للمجموعة، أو القبيلة من خلال إعادة ما تعتقده وما تريد أن تتوارثه أجيالها.

[٢] الموضوع/ المعتقد

فالمعتقد الذي تسرده (التحميدة) هو تفاصيل المعتقد التوحيدي الذي تريد ترسيخه في ذهن الصبيان وذهن المتلقين والحاضرين لحفلة التحميدة، وتفاصيل المعتقد التي جاءت في التحميدة هي: الله والخلق والعلم والنار والحساب والإيمان والكفر والحشر والنبي محمد والشفاعة والثواب ونزول القرآن، وقد جاء هذا التفصيل في عدد من الأبيات وهي من بيت [٤-١٨] وهذا التأكيد من (التحميدة) على استحضار جانب التوحيد والمعتقد السلفي ما هو إلا إشارة في أنَّ **(المنتج الشعبي) يساهم في تعزيز علوم القرآن الكريم**، وهذه المساهمة ليست قصدية/ واعية في تأسيس معرفة، ولكنها مساهمة بالفطرة والطبيعة التي نشأت عليها.

بعد ذلك تتوجه التحميدة على لسان الولد، مستخدمة أسلوب النداء في مخاطبة (والد الخاتم) بأن يجزل العطاء بالمال ويلقيها على اللوح برضا نفسه دون غضب، وذلك لتذكيره بالمال الذي سبق أن اتفق عليه المطوع مع والد الخاتم، كما لا تنس التحميدة التوجه بالنداء أيضاً لوالدة الخاتم وعمه وخاله وجده وجدته بأن يساهموا في تكريم معلم القرآن الذي علم ولدهم وحفظه القرآن الكريم! وهذا الانتقال في (التحميدة) من الاستهلال إلى الاعتراف بالمعتقد التوحيدي، والانتقال منه للجانب الدنيوي في طلب المال من أهل الولد، هو جانب تكاملي في الهدف من (التحميدة) وهو تحصيل الثواب الديني، مضافاً له الثواب الدنيوي وهي الهدايا والأرزاق المختلفة.

[٣] الختام

وفي الختام يكون (الحمد) من أجل تعزيز مفهوم وموضوع التحميدة في البداية والنهاية، وفيه الصلاة على النبي محمد ﷺ.

الحمـد للـــه ختما وابتـــدا   ما فتق الزهر وما طاح الندى
ما ناح طيرٌ على الأرائك وغردا   ثم الصلاة على النبي محمـدا
على الذي جاء بالهدى المبينـا   والحمـد لله رب العالمينـــا

المبحث الثاني
(التحميدة) أصولها اللغوية والأنثروبولوجية

بُنيت (التحميدة) على نظام سيميائي لغوي، وغير لغوي، فأما اللغوي فهو نص (التحميدة) الذي يردده الأولاد، وأما غير اللغوي فهو ممارسة طقس الاحتفال بختم القرآن والخروج للسكك والحارات بالأهازيج والأصوات المرتفعة بالتأمين، وهذا النظام السيميائي هو الذي جعل (التحميدة) نصّاً ذا بنية ثقافية اجتماعية لها جذورها العميقة في الوجدان البشري، صحيح أنها ارتبطت بحالة دينية إسلامية وهي حفظ القرآن الكريم، ولكن هذه الحالة لها تشابهات بنيوية في ثقافات وحضارات بدائية قديمة، وأهمها (طقوس العبور) التي لها غايات مخصصة للأولاد الصغار، (فغاية الطّقس هي حمل الشّخص الغرّ من مجتمع الأطفال إلى مجتمع البالغين)(١).

وأيضاً فسنجد تشابهاً كبيراً بين طقس التحميدة، وطقوس العبور البدائية، فعلى سبيل المثال: (في محراب أيلوزيز Eleusis، كان المرشّحون تحت إمرة كاهن يطوف بهم في أرجاء المعبد ليتطهّروا فيه. ثمّ يُساقون جريا نحو شاطئ البحر ويسمّى هذا الرّكض "الإبعاد". كان المبتدئون في الرّهبانيّة يستحمّون مع خنزير، ثمّ كان عليهم أن يراعوا جملة من المحظورات الغذائيّة الصّارمة، وأن يشاركوا جماعة من السّائرين في موكب،

---

(١) مقال: طقوس العبور بقلم: نيكولا جورني Nicolas Journet ترجمة: المنتصر الحملي.

وبعدها يتمّ قبولهم داخل المعبد ويُكشَف لهم عن أسرار الموت. وفي آخر المطاف، تأخذهم الأناشيد والمواكب من جديد إلى الحياة الدّنيويّة)(٢).

(التحميدة) على وزن تفعيلة، وهي صيغة مبالغة تدل على الاستمرارية، وهي نص لغوي يردده طلاب تحفيظ القرآن عند (الملا) بعد ختم القرآن الكريم.

التحميدة هي نتاج مجتمع تقليدي متدين، مجتمع يمارس حياته اليومية من خلال نظام الطقوس التي في غالبها هي نتاج الوعي، واللاوعي، ونتاج التوارث من الأسلاف، والمجتمع المتدين له ثلاثة مظاهر مع المقدس:

- مجتمع متدين خائف؛ وهو المجتمع الذي يتعامل مع المقدس بوصفه وسيلة تلقي للأوامر والنواهي، من أجل رضا الإله (وهذا النوع هم أكثرية الشعوب المسيطرة عليها فكرة الدين دون تفكير؛ أي التسليم المطلق).
- مجتمع متدين طبيعي؛ وهو الذي يتعامل مع المقدس بوصفه مُلهماً ومُعيناً على إنتاج أنواع من الحياة والرزق والمعرفة ويربطها بتصوراته حول الكون (وهذا هو مجتمع الشعوب المتحضرة ذات الحرف والصناعات والفنون).
- مجتمع متدين براجماتي/ وصولي؛ وهو المجتمع الذي يطوع المقدس لما يريده من تأسيس أفكار السلطة والاستحواذ والسيطرة على الناس

(٢) مقال: طقوس العبور بقلم: نيكولا جورني Nicolas Journet ترجمة: المنتصر الحملي.

(وهذا هو مجتمع الحكام والسلاطين).

ويتجلى المظهران الأول والثالث في نظام التحميدة من خلال: أنَّ الأطفال الصغار هم المجتمع المتدين بالفطرة فيدفعون إلى نظام (الملا) ليعلمهم القرآن الكريم تلقيناً حرفيّاً وفهماً لا واعياً، وهم مأمورون بالامتثال لهذا الملا وسماع كلامه وطاعة أوامره ونواهيه والتعرض لعقابه، واكتسب الملا هذه السلطة من خلال أمرين هما: كونه الوحيد المتقن لتعليم القرآن الكريم، وأخذه الموافقة المطلقة من ولي أمر الولد بضربه عندما لا ينصاع لنظام الملا! وبهذا فيكون (الملا) مستفيداً من سلطته في السيطرة على الأولاد وتحفيظهم للنص المقدس من أجل المكافأة المرتقبة من ولي الأمر!

(التحميدة) هي طِقس شعبي، وهي نوع من الطقوس الدينية المرتبطة بالمقدس وهو (القرآن الكريم)، وتمتزج معها طقوس دنيوية في حالة من إيجاد التوازن بين الديني والدنيوي، فطقس (التحميدة) هو طقس ديني/ دنيوي في نفس الوقت، وحالة التكرارية في عمل طقس (التحميدة) هي التي تجعل له الرسوخ في الذاكرة والوجدان الشعبي المرتبط بالحالة الدينية.

تقوم (التحميدة) على فكرة (طقوس العبور) في الثقافات البشرية، وهذه الطقوس أسس لها الباحث: فان جينيب، (وهي المرتبطة بالتحولات الكبرى والتي تطبع المحطات الأساسية في الحياة، وهي تستخدم لنقل الأشخاص من وضع معين إلى وضع آخر، وبين الوضعين توجد فترة انتقالية تمثل "هامشا" يمر فيه الشخص، وبطرق شديدة الغرابة أحياناً،

بشيء يشبه موتاً يتلوه بعث. هكذا يكون للطقس دور خلق إنسان جديد، يحمل في الغالب اسماً جديداً، ويستأمن على سر المسارة الذي لا يهدف إلا إلى تأمين التماسك والخضوع الاجتماعيين.. والمسارة بالمعنى العام، العبور إلى معرفة لا يمكن التوصل إليها إلا في نهاية مسيرة طويلة. وبتعبير أكثر دقة فإنَّ المسارة هي مجموعة الطقوس التي من خلالها يكون عبور الأولاد ضمن مجموعات، إلى اكتساب الهوية الاجتماعية للراشدين)[1]، ولكي نطبق نظرية طقس العبور على طقس (التحميدة) فيمكن أن نعمل الخطاطة التالية:

(١) ينظر: اثنولوجيا أنتربولوجيا، فيليب لايورت-تولرا. جان-بيار فارنيه، (ص: ١٧٨-١٨٩)، ترجمة: د. مصباح عبد الصمد.

خطاطة طقس العبور في (التحميدة)

فراق	هامش	قبول
انفصال الولد/ الأولاد عن والديه	التحاق الولد/ الأولاد بالكتاب تحت إشراف (الملا) لمدة أشهر أو سنوات لحفظ الكلام المقدس (القرآن الكريم)	عودة الولد/ الأولاد للأهل بعد ختم القرآن الكريم، وقبوله إنساناً جديداً ناضجاً نضجاً روحيّاً يعترف به المجتمع في حفلة (التحميدة)
	(الموت الرمزي) في فترة الهامش قد يتعرض الولد/ الأولاد للموت الرمزي، وهو الضرب بالفلكة (الجحيشة) وقد يتعرض للتعنيف بالكلام القوي من (الملا)	

ونفس الخطاطة السابقة تحدث نفس البنية في ثقافات بدائية قديمة، كثقافات طقوس التعميد، وهي كالتالي:

خطاطة طقس العبور في (طقوس التعميد) البدائية(١)

فراق	هامش	قبول
انفصال الولد/ الأولاد عن والديه	التحاق الولد/ الأولاد بتجمعات أو مدارس لتعليم القنص والفخاخ وصيد السمك والحرب وتعلم أسرار القبيلة المقدسة	عودة الولد/ الأولاد بعد طقوس التعميد الاحتفالية حيث يصبح الولد/ الأولاد شباباً رسميين في القبيلة
	(الموت الرمزي) في فترة الهامش قد يتعرض الولد/ الأولاد للموت الرمزي، وهو عدم السماح له بالكلام أو الضحك والتغذية بالحد الأدنى من الطعام، والتعذيب بالضرب وشق الجبهة	

(١) ينظر: أصل الأشياء "بدايات الثقافة الإنسانية"، يوليوس ليبس. (ص: ٢١٣-٢١٩)، ترجمة: كامل إسماعيل.

وعليه: فإنَّ طقس عبور التحميدة؛ وطقس عبور التعميد البدائي، لا يكتملان إلا بعد زمن فيه ممارسات وطقوس وعنف واكتشاف الأصل المقدس، بعد هذه المقارنة في طقوس العبور بين طقس (التحميدة)، وطقس التعميد البدائي، نحاول أن نفصل أكثر في تحليل طقس (التحميدة):

يبدأ الطِّقس منذ أن يأتي الأب بولده الصغير إلى (المطوع) فيقول له: "لك اللحم ولنا العظم" في دلالة مضمرة لا يفقهها الولد الصغير، وإنما يفقهها ويفهمها الأب والمطوع اللذان يمارسان صناعة الطِّقس بهذه اللغة المشفرة، وأداة الصناعة هي: هؤلاء الأولاد الذين هم قرابين للمقدس، قرابين للمظهر الاجتماعي، قرابين للمعرفة، قرابين للأبجدية، قرابين لأي فكرة في داخل فكر الأب والمطوع، وفي لحظة استلام المطوع للولد تحدث (حالة انفصال) انفصال الولد عن مجتمعه الصغير؛ مجتمع الأب والأم والإخوان، إلى مجتمع جديد يتسم بنظام خاص في التلقين ورفع الصوت وتعرف أولاد من نفس العمر، وربما التعرض للضرب المبرح عندما لا يسير الولد مع نظام (المطوع)! عندما يقدم الأب ولده بوصفه قرباناً، فإنَّ القربان مصيره التلاشي، والفناء، ما لم يحسن هذا الولد السمع والطاعة والتلقي حتى لا يتعرض للضرب بالفلكة.

مرور الأيام والشهور في ارتباط الولد بهذا الكتاب هو أيضاً من عوامل صناعة الطِّقس الانفصالي/ انفصال عن المجتمع الصغير/ ارتباط بالمجتمع الجديد/ وسلطة المطوع من أجل إتقان المعرفة/ وهي قراءة النص المقدس/ ومعرفة الأبجدية التي من خلالها يفك شفرة الحياة.

وإذا مرت الأيام والشهور فيحدث أن يتقن الولد تلاوة النص المقدس، ومن هذه اللحظة يستمر الطِّقس لإعادة الولد إلى أن يتصل من جديد بمجتمعه مجتمع الأب والأم ومجتمع الحارة الكبيرة التي يعيش فيها، وهذه هي (لحظة اندماج) فيعمد المطوع ومن يساعده بالتحضير (لحفلة التحميدة) لإعادة الولد/ الأولاد إلى المجتمع مرة أخرى ولكن بعد مشوار طويل في العبور إلى المعرفة! فيكون الاعتراف بهم اجتماعيّاً بسبب التزود بالجانب الروحي وهو القرآن الكريم.

عناصر طِقس (التحميدة)

(١)	لحظة انفصال: (انفصال الولد من مجتمع البيت)
(٢)	لحظة اتصال: (اتصال الولد بمجتمع المطوع والأقران من الأولاد)
(٣)	تقديم الولد بوصفه قرباناً: (لك اللحم ولنا العظم)
(٤)	تعرض الولد للعنف: (الضرب بالفلكة أو التعرض للكلام القاسي)
(٥)	مرور الأيام والشهور في المعرفة/ وفك شفرة النص المقدس
(٦)	لحظة إتقان الولد: (رضا المطوع وتفضيل الولد على غيره ممن لم يتقنوا)
(٧)	حفلة التحميدة: (وهي حفلة تتمة الطِّقس وعودة الولد (للحظة الاتصال) بالمجتمع

وبعد كشف البنيات الأساسية لطقس (التحميدة) فمن الضروري أن نعرف الغاية والأهمية من هذا العمل الطِّقسي الذي ينتجه النظام الشعبي، فأهمية الطقوس بالنسبة للبدائيين/ الشعبيين (تتجلى في الإبقاء على الوعي الجمعي في حالة صحوٍ دائمة) كما يؤكد ذلك دوركايم. ولعل المقصود بحالة (الصحو الدائم) لدى البدائيين/ الشعبيين هو الوعي بأهمية المحافظة على النظام الثقافي الذي ابتكره الشعبيون، وتوريث هذا النظام للأجيال اللاحقة.

ومن أهمية الطقوس أيضاً[1]:

- تحقيق حالات ثنائية في الحياة، وهي المتحققة في حالتي (الانفصال- الاندماج).
- إيجاد نظام اجتماعي تصنعه الجماعة وليس الفرد، وهذا النظام لا قيمة للفرد فيه إلا أن يكون مطواعاً لكل أنظمة الطِّقس، ولذلك فقد تم صناعة نص وطقس التحميدة بدون معرفة لأسماء مؤلفي هذا النوع من الأجناس الشعبية، وهذه سمة عامة في كل الآداب الشعبية، ولعله سر من أسرار خلودها، لأن الضمير الجمعي هو الناقل والحارس لها في نفس الوقت.
- أيضاً فإنَّ الطقوس تعمل على (إدارة للمقدس) وللتعاليم، وتعمل على

(١) ينظر بالتفصيل كتاب الإسلام الشعبي، زهية جوير.

طريقة خاصة في تلقي المقدس بالنسبة للمتلقين، وبدون الطقوس فإن التلقي يتلاشى، وينفتح على تأويلات كثيرة لا تريدها الجماعة، ولذلك فهي تعمد من خلال الطقوس على توصيل معنى المقدس الذي تريده وتؤمن به.

- والطقوس أيضاً تحافظ على الفكرة/ الوعي الذي أنشأه الشعبيون/ المتدينون، وهذا النوع من التدين يختلف اختلافاً كبيراً عما جاء به المتدينون من جيل الصحوة، الذين تولوا قيادة مدارس تحفيظ القرآن الكريم، فأوقفوا النظام القديم، وكسروا الطقوس القديمة، ولو جئنا بعد زمن للبحث في مظاهر الخلود في نظام تحفيظ القرآن الكريم ما بين الشعبيين البدائيين، وما بين جيل الصحوة/ المتعلمين فسنجد أن جيل الشعبيين سيكون له الخلود بناء على النظام الثقافي/ الأنثروبولوجي الذي صنعوه، وستظل طرائق جيل الصحوة في التعليم مرتبطة بأيديولوجيا خاصة بهم لا تقترب من الجماعة أو الأمة!
- والطقوس أيضاً تعمل على تكييف الطفل، أو تهذيبه، أو ترويضه لنظام الثقافة الجمعية، وهذه الطقوس في فكرة الترويض تتلاقى مع أيديولوجيا نظام الصحوة الإسلامية، في جعل الأولاد يسيرون في نظام الجماعة! لكن الجماعة هي الحارة الشعبية عند الشعبيين، والحزب عند جيل الصحويين!

الخاتمة

بعد الانتهاء من هذه الورقة من الممكن الخروج بالنتائج الآتية:

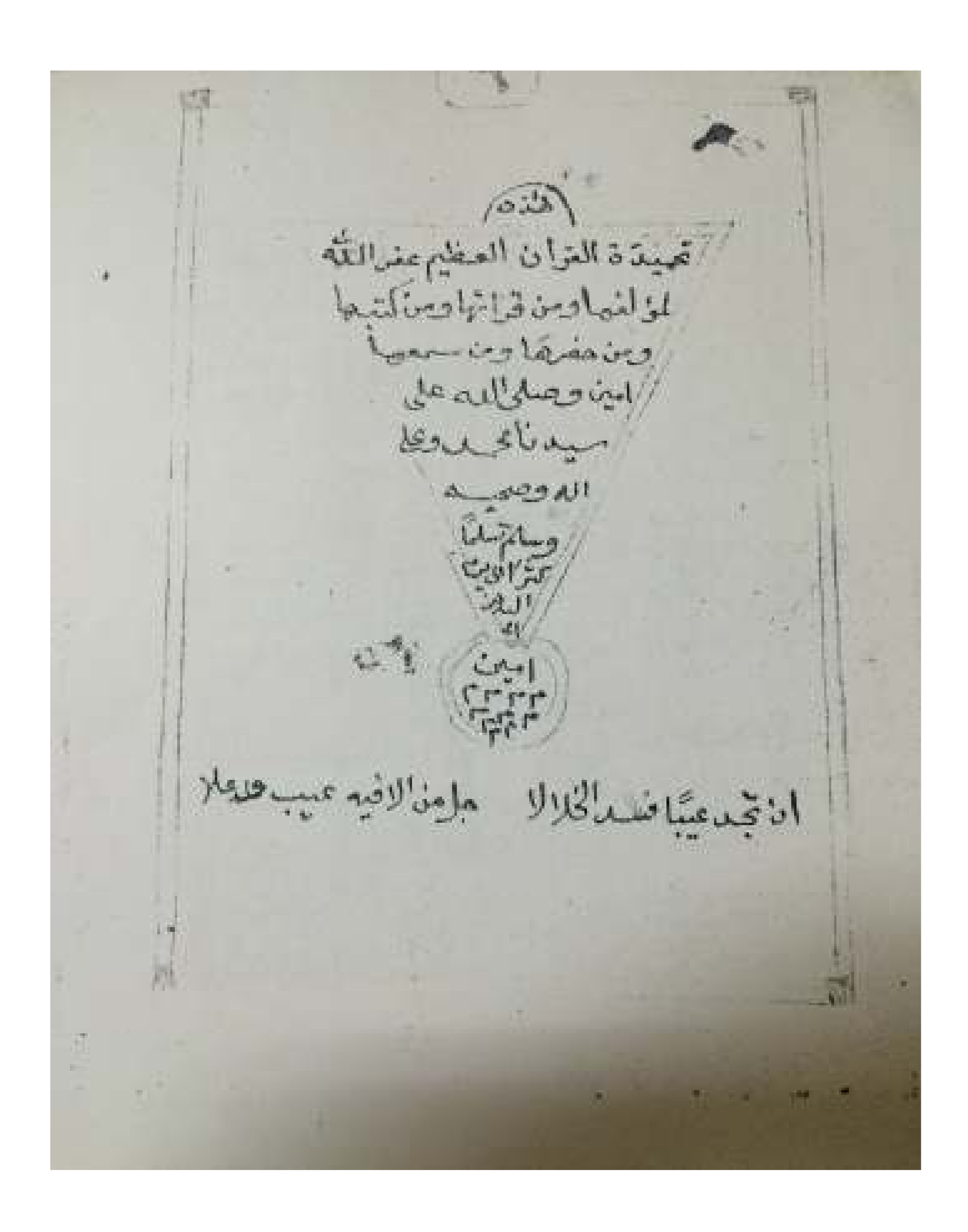
- أنَّ التحميدة ثقافة اجتماعية مصدرها (العاطفة) نحو القرآن الكريم.
- أنَّ التحميدة تحمل نظاماً سيميائيّاً متكاملاً [لغوياً- وغيرَ لغوي].
- أنَّ التحميدة تعود في أصولها إلى ما يُعرف بـ "طقوس العبور" وتتشابه مع طقوس التعميد البدائية في الثقافات القديمة.
- أنَّ اللاوعي له دوره في تشكيل (التحميدة) بهذا النظام الثقافي، فقد غاب الوعي بكونها طِقساً، وبقيت في الذهنية أنها مجرد حفلة تكريم وفرح.

المصادر والمراجع

- اثنولوجيا أنتربولوجيا، فيليب لايورت-تولرا. جان-بيار فارنيه. ترجمة: د. مصباح عبد الصمد. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع- بيروت، ط١، ٢٠٠٤م.
- أصل الأشياء "بدايات الثقافة الإنسانية"، يوليوس ليبس، ترجمة: كامل إسماعيل، دار المدى للثقافة والنشر- سوريا، ط١، ٢٠٠٦م.
- الإسلام الشعبي، زهية جوير، دار الطليعة-بيروت، ط١، ٢٠٠٧م.
- تاريخ التعليم في العراق، عبد الرزاق الهلالي، شركة الطبع والنشر الأهلية، ط١، ١٩٥٩م.
- التربية والتعليم في الإسلام، محمد أسعد طلس، دار العلم للملايين- بيروت، ١٩٥٧م.
- التعليم التقليدي المطوع في الأحساء، محمد بن علي الحرز.
- الحياة العلمية والثقافية والفكرية في المنطقة الشرقية (١٩٣٠- ١٩٦٠م)، عبد الله بن ناصر السبيعي، ط٢، ١٩٨٩م.
- كانت أشبه بالجامعة "قصة التعليم في مقاطعة الأحساء في عهد الملك عبد العزيز"؛ دراسة في علم التاريخ الاجتماعي، عبد اللطيف بن محمد آل ملحم، ١٩٩٩م.
- لمحات من الحياة التعليمية في الأحساء "من القرن الحادي عشر إلى القرن الخامس عشر الهجري"، عبد اللطيف بن عثمان الملا، الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون- فرع الأحساء. بدون تاريخ للنشر

- مخطوطات نص (التحميدة)، عبد العزيز العصفور.
- مقالات في تراث الأحساء، عبد الله بن عبد المحسن الشايب، ط١، ٢٠٠٠م.
- المقدس بين العادة والمعتقد، عزيزي سعيدة، مجلة الثقافة الشعبية- البحرين، ٢٠٠٨م
- مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ٢٠٠١م.
- منطقة الأحساء عبر أطوار التاريخ، خالد بن جابر الغريب، المكتبة الوطنية-الخبر، ط٢، ١٤٠٨هـ.

نسخة رقم: (١)


هذه
تحميدة القرآن العظيم غفر الله
لمؤلفها ومن قرأها ومن كتبها
ومن حضرها ومن سمعها
امين وصلى الله على
سيدنا محمد وعلى
آله وصحبه
وسلم تسليما
كثيرا الى يوم
الدين
امين

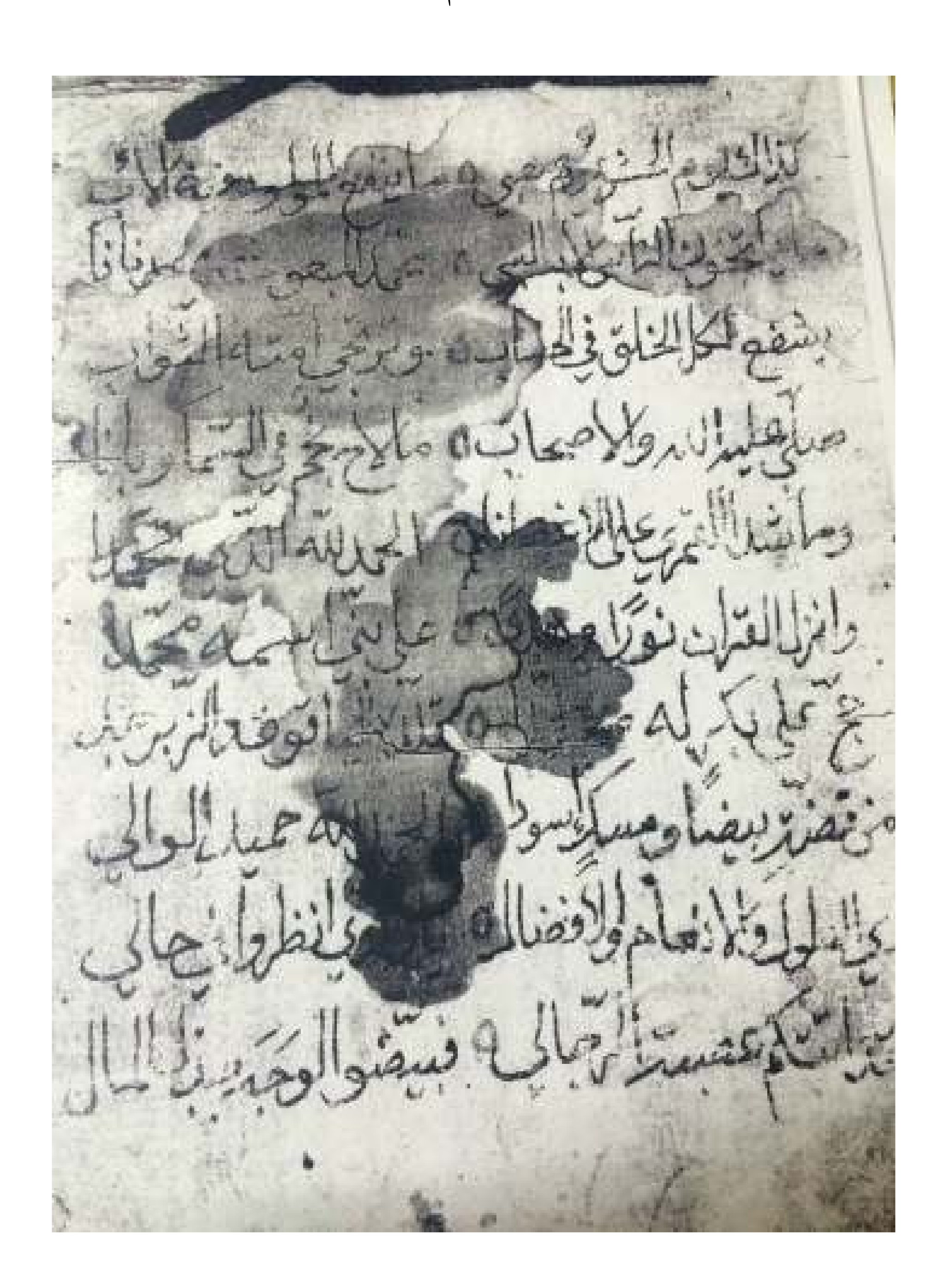
ان تجد عيبا فسد الخللا　　جل من لا فيه عيب وعلا


نسخة رقم: (٢)



نجوم الليل طالعة علينا ... عين الله ناظرة إلينا
وجند الله محترس علينا ... بحول الله لا يقدر علينا
فلا زال السرور عليك دهرا ... مقيما بالمساء وبالصباح
صلاة الله على المختار طه ... عدد ما قيل حي على الفلاح
كذلك الآل والصحب جميعا ... يعمهم على مر الرياح
صلى الله ربنا على النور ... لنبي أحمد المصطفى سيد المرسلين

نسخة رقم: (٣)



لذلك اليوم الشنيع [illegible]
[illegible] الناس [illegible] النبي [illegible]
يشفع لكل الخلق في الحساب [illegible]
صلى عليه الله والأصحاب ما لاح نجم في السماء [illegible]
وما [illegible] على الأغصان الحمد لله الذي [illegible]
وانزل القرآن نورا [illegible] على نبي اسمه محمد
[illegible] الزبرجد
من نضد بيضا ومسك اسودا [illegible] حمدا للوالي
ذي الطول والإنعام والأفضال [illegible] انظروا حالي
[illegible] فبيض الوجه [illegible]